مجد اللغة العربية وراهنها

أ. ونوغي إسماعيل
ج فرحات عباس – الجزائر

ملخص

يتحدث المقال عن تحديات اللغة العربية في الوطن العربي على وجه العموم من حيث تاريخها العريق وما مثلته من قوة وتمكّن، وصمود أمام مجموعة كبيرة من الأزمات التي تعرضت لها عبر سنين عديدة، وهي اليوم تقف أمام أكبر التحديات وأعقدها؛ تنكّر بعض أهلها لها في مواطن عديدة من ناحية، ومحاربة الأجانب الأعداء لها من ناحية أخرى، واستعمال اللغة العربية الآن الاستعمال الأوفى في أهم جوانب الحياة ضرورة قصوى؛ في الاقتصاد والاجتماع والسياسة ومجالات أخرى وخاصة قطاع التعليم، وذلك بوضع مخطط لغوي عربي يحفظ اللغة العربية من جميع الأخطار الداخلية والخارجية.

Résumé

Cet article propose les défis de la langue arabe dans les pays arabes d'une façon générale a travers son vétéran passé et sa force et son pouvoir، et sa résistances devant un grand nombre de dilemmes à travers plusieurs années ، aujourd'hui elle rencontre les grands défis très compliqués، travestissement de ses quelques dignes ، d'une part، et la belligérante des étrangers d'autre part ، pour l'instant l'utilisation parfaite de la langue arabe est indispensable، dans des divers domaines de la vie، économie، sociale ، politique et autre domaines et surtout section d'enseignement ، cela a l'aide d'un plan linguistique arabe qui protègera la langue arabe de tous les dangers intérieurs et extérieurs.

منطلق :

إنّ الحديث عن اللغة العربية الفصحى لذو شجون، ليس لأننا ننتمي إلى هذه اللغة العريقة في الأصالة والتمكّن، ولا لأننا نتحدث بها ونعبّر بواسطتها، أو نكتب بها، ولا لأنها اللغة الرسمية لبلادنا وشعبنا، ولا لأنها لغة أمّة بأكملها منذ مئات السنين، ولكن لما يحاصر هذه اللغة الصامدة عبر العصور من أزمات تلو الأزمات ؛ من استدمار يسعى بكل الوسائل والإمكانات لطمس اللغة العربية ونسخ آثارها، والاجتهاد في مقابل ذلك على ترسيخ لغته ولهجاته، اعتقادا منه بأن هذا الفعل سيمدد بقاءه في البلاد المحتلة، وسيطيل سيطرته عليها، ومن تنكّر بعض أهلها، إذ يرون فيها عجزا وضعفا وقصورا عن مواكبة التطور، وغير صالحة للسير في ركب التقدم والازدهار.

إذا كان الحط من مستوانا، والنيل من معتقداتنا، ورمي لغتنا العربية بالعقم والضعف والقصور وعدم مواكبتها مستجدات العصر... صفات ينعتنا بها غير الناطقين باللغة العربية منذ عهد عهيد، فهو أمر ليس غريبا علينا، ولا على أي عاقل، لأن هذا الأمر قديم، ولا يحمل ما يثير الغرابة والدهشة، ولكن الذي يستثير الحافظة، ويوقظ الإحساس بالأسف أن يكون الذي ينعتنا بذلك واحد من إخواننا أو أقاربنا أو طلابنا، ومما لا شك فيه أن هذا الأمر يزيد تعقيدا ولا ينبئ بخير، وسيكون هذا الشيء عرقلة وتثبيطا في سبيل تطوير اللغة العربية، وإخراجها وأهلها من غيابات تلك التهم الباطلة.

ولقد ذكر الأستاذ أبو القاسم سعد الله في معرض حديثه عن احتكاك المثقفين العرب المباشر بالأجانب بعضا من تأثرهم بصورة واضحة بالثقافة الغربية ونمط الحياة هناك، فذكر في مقال له بهذا الصدد مجموعة من الكتّاب الذين ألفوا كتبا مستظهرين إعجابهم بما اطلعوا عليه في فرنسا وانجلترا وغيرها؛ منها كتاب (المرآة) لحمدان خوجة، وكتاب (تخليص الإبريز) لرفاعة الطهطاوي وغيرها حيث قال : « ومن آثار هذا الاتصال ظهور فئة تشكك في قدرة اللغة العربية على مسايرة العصر ومواكبة التطور، وتحث العرب على اليقظة والاجتهاد ونبذ الجمود » [1].

أمام هذه الحقيقة المؤلمة وددت أن أسهم بتوفيق من الله عز وجل بما تيسر في إزالة بعض الغموض الذي يعتري كثيرا من إخواننا وطلابنا، وأضع يدي على مواطن القوة الكامنة في اللغة العربية، والتي يغفل عنها كثير من الناس في المعمورة . فاللغة العربية حملت في طياتها حضارات عريقة في التاريخ البشري منذ آلاف السنين، ولا نغض الطرف عن أنها اللغة الوحيدة المنفردة التي هي لسان القرآن الكريم. هذا الكتاب السماوي الخالد الذي :« نزل بلسان عربي مبين فكان للغة العربية مزية لا تتأتّى لغيرها من اللغات، وكما أثر القرآن الكريم في الأمة العربية، في أخلاقها وعقيدتها وشتّى نواحي حياتها، فقد أثر أيضا في اللغة العربية تأثيرا بالغا.. » [2].

ومهما نقول عن فضل القرآن الكريم على اللغة العربية، فلا يمكن أن نحقق تعليقا نهائيا على ذلك.

اللغة العربية في عهدها الأول:

من الإنصاف أن نشير إلى بعض المواضيع التي ساعدت اللغة العربية فيها على التألق والثبات والدوام والخلود .. وحملت بمفرداتها وتراكيبها تراثا يزخر بشتى المعارف والحقائق، والفنون والآداب..

لا أرغب في هذا المجال أن أرجع اللغة العربية إلى تاريخ نشأتها الأول منذ آدم عليه السلام، لأنّ هذه المسألة خاض فيها المؤرخون وعلماء الآثار، ولكن سأقصر حديثي عن العصر

الذهبي للغة العربية، أو الزمن الذي اكتمل فيه نموها ونضجها، حيث صارت أداة كاملة ناضجة صالحة للتعبير عن الحياة والوجدان.

لقد تكونت اللغة العربية بجوار اللهجات القبلية العربية المختلفة التي تنطق بها كل قبيلة، وكان استعمالها يسيرا سلسا، لا يعسر فهمها على سائر القبائل المغايرة ؛ إنها اللغة **المثالية** الخالية من العيوب والنقائص وهي كذلك لغة المجتمعات الأدبية، ولغة الشعر والخطابة، ولقد تلاحمت فيها جميع اللهجات والتعابير العربية، وتشكلت من أحسن ما في تلك اللغات من عناصر ووحدات، كما تخلّصت من جميع العيوب والهنات التي اتصفت بها سائر اللهجات العربية الأخرى، فبرزت اللغة العربية أحسن بروز في القرآن الكريم وفيما وصل إلينا من أدب العصر القديم الرفيع ؛ نثره و شعره ...

أمّا أسباب تكوين هذه اللغة الأدبية فكثيرة منها: الظروف التي هيأها أهل اللغة العربية للغتهم حتى وصلت إلى المنزلة التي وصلت إليها، فكانت هي لغة التخاطب اليومي والتواصل المستمر المقرون بالحياة، كما كانت الناقل الأمين لأشياء ووسائل وأسباب تلك الحياة على بساطتها، إضافة إلى أنها كانت قاعدة صلبة لدى الناثرين والشعراء يتنافسون في اختيار المفردات الواضحة، والتراكيب السلسة، ومؤرخو الأدب القديم يشيرون إلى ذلك، و قد كانت تقوم أسواق في العصر الجاهلي يلتقي فيها الشعراء والخطباء، وكانت سوق عكاظ هي أهم الأسواق آنذاك: « كان الكلام فيها بلغة يفهمها الجميع يتوخى الشاعر أو الخطيب الألفاظ العامة والأساليب العالية في لغة مثالية موحدة تروق كل سامع، ولا ينفرها أو يستغربها أحد . فكان من ثمّ للأسواق أثر بليغ في توحيد اللسان وتعميم اللغة المثالية، وتغليب لغة قريش على سائر اللغات... » [3].

وحديثنا عن الأسواق، يجرنا إلى الأماكن أو القبائل التي كانت تعقد فيها تلك الأسواق، وكانت لقبيلة قريش تلك الخاصية، في كونها كانت جامعة للقبائل العربية بما حباها الله سبحانه وتعالى من فضل، إذ جعل فيها مقام الكعبة الشريفة التي يفد إليها الحجاج من كل فجّ عميق، فليس من العجب أن يكون لقريش الحظ الأوفر في توحيد اللغة العربية وجمع لهجاتها في بوتقة واحدة، لتستخلص اللغة العربية الكاملة الشاملة لسان كلّ عربي من أي قبيلة كانت وقد تهذّبت اللغة العربية واستقام استعمالها بما أخذته من لغات القبائل الوافدة على بلادها، من الألفاظ الخفيفة على اللسان والعذبة في السمع، والمؤدية للمعنى المقصود.

لا ننسى ذلك التأثير والتأثّر المتبادل بين اللغة العربية ولغات الأمم المتاخمة الأخرى إذ أنّ تركيب اللغة العربية لم يكن قاصرا على لهجات عربية فحسب، بل ساهم فيه كذلك قسط من لغات غير عربية، ولكن بصورته الإيجابية التي أضفت على اللغة العربية مسحة من التكيف مع الإنسان في كل المعمورة وقال حنا الفاخوري في هذا المجال :

«لم ينحصر العرب في جزيرتهم بمعزل عن تأثير الحضارات المتاخمة، بل كانوا أبدا في احتكاك مع من جاورهم، فأضيفت إلى لغة عدنان ثروة الحضارة القحطانية، وحضارة مصر وفارس والروم والحبشة عن طريق التجارة أو طريق التنافس بين الحيرة وغسان، والفرس والروم من ورائهما . كانت اللغة تواصل تطورها مكملة ما ينقصها بما تأخذه من لغات تلك الحضارات الواسعة النطاق»[4]. وهكذا وصلت اللغة العربية في العصر الأدبي القديم إلى أرقى المراتب، وأعلى المنازل، وقد تزودت بمحاسن لغات أخرى عديدة وحضارات كثيرة متعاقبة، تستطيع التعبير عن كل شيء مهما بعُدَ أو دنا، وتستطيع التعبير عن خفايا النفوس وما يعتلج في الصدور، كما صارت لها القدرة الكاملة على تصوير المشاهد والمناظر و التصورات والخواطر، وما إن ظهر القرآن الكريم؛ الكتاب السماوي المقدس فيها، حتى ثبّتها ووطّد أركانها، وأرسى قواعدها، وعمل على حفظها بالرغم من تقلبات الأيام وحدثان الزمان.

ومن صفات اللغة العربية البارزة أنها دقيقة، اشتقاقية، واسعة الدلالات والمعاني، فيها ضروب من النحت والقلب و الحذف والترادف، والإعلال والإبدال، وأنواع من المجاز والإيجاز والكناية والاستعارة وما أشبه ذلك من ضروب التعبير والتدليل والاستقراء والتحليل...

وفضل اللغة العربية غير مقتصر على الأمة العربية فحسب، بل على البشرية أجمعين لأن الدين الإسلامي لم يقصد أمّة أو شعبا بعينه، وإنما عنى الإنسان في كل شبر من هذا الكون، يقول الله تعالى : [**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**] .[سورة الأنبياء، الآية / 125 .] وهذا باعتراف العلماء العرب وغيرهم من مفكري غير العرب والمسلمين، مثل ما قال المستشرق الكبير(كارل بروكلمان) :

« تمتاز لغة الشعر العربي بثروة واسعة في الصور النحوية (الإعراب)، وتعدّ أرقى اللغات تطورا من حيث تركيبات الجمل ودقة التعبير، أما المفردات فهي غنية غنى يسترعي الانتباه، ولا بدع فهي تصب فيها الجداول من شتّى القبائل» [5].

في هذا القول يشير إلى الشعر العربي القديم، وقد أحاط بدراسته والبحث في أغراضه وعباراته وتراكيبه، فوصوله إلى حكمه الأخير كان عن قناعة وإيمان، واعترافه انصب على اللغة العربية من حيث هي اللغة الجامعة لمجموعة من الاستعمالات العربية لدى مجموعة من القبائل العربية، ولكنه لو أضاف إلى حديثه عن الشعر العربي رأيا في القرآن الكريم لاتخذ الأمر منحى آخر إذ أنّ القرآن الكريم هو الذي صار اللسان العربي المبين الذي أعجز الشعراء والخطباء ولغة الشعر والخطابة التي تحدث عنها (بروكلمان).

وإذا عدنا إلى الحديث عن العلماء العرب في القديم فلا بد أن نشيد بما قدموه من دراسات واهتمامات باللغة العربية، في جميع أشكال البحث والدراسة، بل قاموا بأكثر مما كان يتوقع منهم من محاولات في شتى الميادين الدراسية والعلمية للغة العربية في المجال النحوي والصرفي

والنحوي والصوتي والمعجمي والدلالي.. ومن أجل ذلك يقول الأستاذ حلمي خليل : (لقد قام علماء العربية القدماء بواجبهم في دراسة العربية وتحليلها بما أتاحه عصرهم من علم، ونحن لم نفعل ذلك، رغم ما أتاحه عصرنا من أساليب ومناهج علمية في دراسة اللغة، لم يتح للقدماء ما يقترب منها أو يشبهها) [6].

فليس من السهل الإحاطة بالإعمال الجليلة التي قام بها أسلافنا في كل مجالات علوم اللغة العربية ومستوياتها، وليس في المقدور أن نحصي النتائج التي توصلوا إليها عبر العصور المتعاقبة، فقد كانت دراساتهم متطورة، يتبع بعضها بعضا، كل ميسّر للظروف المحيطة به، ومهيأ لما بلغ إليه علمه وعثر عليه من أعمال الذين سبقوه، والأمثلة في هذا المنوال كثيرة ومتنوعة، فأبو الأسود الدؤلي (ت :69هـ) مثلا، إليه يرجع المؤرخون نشأة النحو العربي، إذ هو الذي وضع اللبنات الأولى لقواعد اللغة العربية، كما ترجع بذور الدراسات الصوتية الأولى لما قام به مع كاتبه بوضع نقط الإعراب في المصحف الشريف وقوله المعروف: (إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه إلى أعلاه، وإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف، فإن رأيت من غير ذلك غنة فضع بدل النقطة نقطتين) [7]، ومن أعماله البدائية انبنت الدراسات اللاحقة عند الذين جاؤوا من بعده، كالخليل بن أحمد الفراهيدي (ت : 175 هـ)، وسيبويه (ت : 180 هـ)، ولم تقتصر جهودهم على مستوى لغوي معين، بقدر ما كانت أبحاثهم شاملة لمستويات لغوية عربية كثيرة ومختلفة، وإذا قلنا إنّ دراساتهم انتهجت المنهج العلمي فإنما سبب ذلك اعتمادهم أسلوب القرآن الكريم وصيغه وتراكيبه وقراءاته . . .

وللأستاذ صالح بلعيد وجهة نظر جديرة بالوقوف عندها، وهي حديثه عن المنهج العلمي الصحيح الذي توخاه العلماء العرب القدماء، حين عرض في سياق تناوله مسألة النهوض باللغة العربية وترقيتها، إذ قال : (ويتطلب البحث العلمي ما يلي :

- الكشف عن مصادر بحثه.
- تطبيق تجربته المدروسة.
- الخروج من دراسته بتفسير محدد للأهداف .
- نقل هذا التفسير من خلال عرض مكتوب بلغة علمية دقيقة.

هكذا كان الحال عند العرب الأوائل، فأبدع جابر بن حيان باستعمال المنهج، كما اعتد ابن الهيثم بالتجربة والاستقراء، وخرج ابن سيناء بنظريات علمية محددة، ونقل الرازي والزهراوي كل بلغة علمية رصينة، فمن مآثرهم العلمية تأسيسهم منهجية البحث العلمي التي قامت على المنهج التجريبي الاستقرائي) [8].

فإذا كنا ننسب إلى الدراسات الحديثة توخي الدقة والموضوعية في طرْق شتى الموضوعات والأبحاث العلمية في مجالات اللغة وغيرها، فإنه لا مناصّ من وصف علمائنا الذين خلوا من قبلنا بذلك، ورأي الأستاذ صالح بلعيد الأخير، ورأي علماء آخرين، خير شاهد على ذلك . ولو لم يكن هناك دقّة في مجهودات علمائنا السابقين لما انتقل تأثيرهم العلمي والفكري والمنهجي إلى العلماء العرب الذين جاؤوا من بعدهم، بل امتد التأثير نفسه إلى علماء ليسوا عربا، ورأي الأستاذ الأخير إنما هو شامل لمجموعة من الأبحاث العلمية والطبية والفيزيائية، التي أنجزها العلماء العرب في القديم وفي العصور التالية، ولكن لا يقف الأمر عند هذا الحدّ، ولننظر علاوة على ذلك إلى ما قاله الأستاذ عبد الرحمان الحاج صالح في هذا المجال :

(من أوائل العلماء الأوروبيين الذين تأثروا بالنحو العربي مباشرة . . .نذكر اللغوي الاسباني (Sanctius) ويعرف بأنه كان واسع الاطلاع ولا سيما فيما يخص النحو العربي. وفي كتابه الأساسي المسمى ب: (Mi Nerva) في نحو اللغة اللاتينية قد أحاط حقيقة بكل المفاهيم الأساسية التي اطّلع عليها في كتب النحو العربية التي راجت في زمانه وخاصة التقسيم الثلاثي للكلم وتبنى هذا التقسيم من النحاة الفرنسيين (Buffier و Dangeau).[9] فالتأثير العربي على البحث الغربي إنما اتخذ منحى آخر تمثل في الاستعمال اللغوي من حيث وظائف الكلمات والحروف في التراكيب الكثيرة والمتنوعة .

ما هو المانع إذا قلنا إن كثيرا من الشبه ظاهر في آراء العلماء الغربيين، ووجهات نظر علمائنا العرب القدامى؟ ولقد سبقني إلى الحديث في هذه المسألة علماء كثر، عرب وغيرهم، وإذا تناولنا هذه القضية على سبيل التمثيل والحصر، نذكر ما ذكره الأستاذ صالح بلعيد في سياق حديثه عن عبقرية الخليل بن أحمد الفراهيدي: (إنّ فضل الخليل بن أحمد الفراهيدي على الدرس اللساني في العالم لهو فضل كبير، ويبدو أنه امتلك رؤية لسانية يتكامل فيها النظر في مستويات العربية (ألا توجد علاقة بين مقول الخليل في المستعمل والمهمل ومقول دي سوسير (De Saussure) في اللغة (Langue) والكلام (Parole)؟

ذلك أن(Langue) ترمز إلى جميع صور الكلمات المخزونة في عقول جميع الأفراد، أي الجزء الاجتماعي المؤلف للغة، وأما (Parole) فهو الجزء الأدائي المستخدم عند المتكلمين) .

ويمكن أن نربط ذلك بفكرة تشومسكي بأن النظام اللغوي المفترض عند الخليل يقابله (Compétence) عند تشومسكي، والمستعمل يقابله (Performance)

أي الأداء اللغوي أو الممارسة العملية بحسب ما تتيحه المعرفة المختزنة من قواعد ؛ أي استعمال ما استوعبه واختزنه من عناصر المعرفة اللغوية من أصوات ومفردات وقواعد في مواقف الحياة المتنوعة)[10] .

كما ذكر الأستاذ منقور عبد الجليل مثل ذلك في هذا المجال :(أثرت طريقة الخليل في وضع المعجم في الصناعة المعجمية بعده فقد ألّف على سمته كثير من اللغويين معاجمهم مثل معجم البارع لأبي علي القالي (ت :356هـ)، ومعجم تهذيب اللغة للأزهري (ت :370هـ)، ومعجم المحكم لابن سيّده (ت :458هـ) .وكذلك طريقة الخليل في شرح المعنى لا زالت معتمدة في المعاجم الحديثة.)[11]، أليست هذه الأشياء وغيرها كثير من تراثنا العربي مما لا يسمح المقام بذكرها جميعها، مخبرة عن أهمية الأبحاث العربية المختلفة، وفضلها على العلماء المحدثين، سواء أكانوا عربا أم غير عرب ؟

راهن اللغة العربية:

إنّ الحديث عن راهن اللغة العربية، يوحي لدى البعض أن هذه اللغة صارت عاجزة عن التعبير عن مستجدات العصر، وباتت غير قادرة على نقل التكيفات الجديدة، وأضحت قاصرة على منافسة اللغات العالمية الأخرى التي يروجون لها، وغير ذلك من الأقاويل التي نسمعها متناثرة هنا وهناك ... إنّ الأمر أبعد من ذلك، إذ لو دقق الناظر في أحوال لغات الأمم الكثيرة والمختلفة لعثر على أن اللغة العربية تتصف بما لم تتصف به غيرها من اللغات ؛ بالثبات والاستقرار والصمود، لذلك عندما نتحدث عن اللغة العربية في هذا المجال يتراءى لنا أنّ هذه اللغة المتميزة لم تخضع للتغير والتحول والتبدل الذي أثّر في اللغات الأجنبية الأخرى، مثل ما حدث في اللغة الإنجليزية على سبيل المثال .

(وعلى الرغم من أنّ التطور سنةٌ جارية في كل اللغات، وأكثر مظاهر هذا التطور يكون في الدلالات، إلا أن العربية ظلت محتفظة بكل مستوياتها « اللغوية – الصرفية – النحوية – الدلالية « وما تطوّر منها كان في إطار المعاني الأصلية وعلى صلة بها. والمحافظة على الأصل الدلالي مع تطور الزمن له فائدة لا يستهان بها، فتواصل الفهم بين الأجيال للنصوص القديمة وتراث الأمة أمر من الأهمية بمكان، ويزداد إدراكنا لأهمية الاستقرار اللغوي الذي تتميز به العربية إذا ما تأملنا التغير السريع الذي يلاحق اللغة الانجليزية ـ لغة الحضارة المعاصرة ـ فنصوص الانجليزية القديمة التي مرّ عليها قرابة ثلاثة قرون أصبحت عصية على الفهم بالنسبة للانجليزي المعاصر)[12] .فمن الواضح أن استقرار الكلمات العربية من حيث الجانب الصوتي و الدلالي منذ قرون كثيرة ليوحي بتلك اللحمة بين جيل اليوم والأجيال الغابرة، وهذا أمر يزيد من عظمة اللغة العربية وقد تكفل الله عز وجل بحفظها كما حفظ القرآن الكريم حين قال :[**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**] [سورة الحجر، الآية/9]. وما من لغة في العالم إلا مسّها التغيير، فحدثت تلك الفجوة بين أجيالهم، وصار من الصعب عليهم التواصل مع بعضهم البعض، مثلما حدث في انجلترا، إذ أنّ هذا الأمر دفع علماء اللغة الإنجليزية إلى إعادة صياغة النّصوص الأدبيّة المهمّة

مثل نصوص (شكسبير) من الإنجليزية القديمة (Old English) التي صارت ذات كلمات معقدة وصعبة الفهم، إلى لغة إنجليزية حديثة (Modern English) . فالذي دفع أولئك إلى ذلك العمل إنما هو إيمانهم بعجز الجيل الجديد عن فهم نصوص كاتبهم الشهير(ويليام شكسبير) الذي ينتمي إلى الجيل الماضي . بينما لو نحن جئنا إلى الفرد العربي المعاصر وعرضنا عليه آيات من الذكر الحكيم، فإنه بالتأكيد لا يشعر معها بغرابة تماما، ويكفي النظر على سبيل المثال إلى قول الله عز وجل في الآية الكريمة : [**يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِّمَّن تَرْضَوْنَ منَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيرًا أَو كَبِيرًا إِلَى أَجَلِه ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْوَمُ للشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُديرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.**] [سورة البقرة، الآية / 282]. فنلاحظ ونحن نقرأ هذه الآية سهولة واضحة في الكلمات والمعاني التي تنطوي عليها، بدءا بمخاطبة المؤمنين : [**يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُواْ** ....]، إلى قوله تعالى : [... **وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**] وكلما سار القارئ مع هذه الجمل والتراكيب كلما فهم المقصود و بلغ المراد، والقرآن الكريم كله على هذا المنوال، اللهم إلا ما ورد فيه من بعض الكلمات التي تبدو غريبة، ولكن سرعان ما نجد معناها في تفاسير القرآن الكريم وفي أبسط القواميس والمناجد العربية الكثيرة والمختلفة الشروح. وكذلك لو عرضنا حديثا من أحاديث رسول الله (صلعم) على العربي المعاصر فإننا نرى الأمر نفسه، والموقف ذاته مع القرآن الكريم ؛ فقد روى مسلم عن أبي هريرة أنّ رسول الله (صلعم) قال : (إنّ الله (عز وجل)تجاوز لأمتي عمّا حدّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به) . وروى مسلم عن أبي هريرة قال : (جاء أناسٌ من أصحابِ النبيِّ (صلعم) فسألوه فقالوا : إنّا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلَّم به ! قال : وقد وجدتموه ؟ قالوا : نعم . قال : ذلك صريحُ الإيمان)[13]. والمقصود ب : (يتعاظم أحدنا أن يتكلَّم به) استعظام الاعتقاد ببعض الكلام في النفس والخوف من النطق به . فكلمات الحديثين الشريفين سهلة ميسورة لا نجد فيها ما يستدعي تكلف الذهن والفكر في فهم معانيها، وما يزيد من يسرها وألفتها أنها لغتنا الحاضرة التي نتداولها بيننا، سواء في كلامنا أم في كتاباتنا... ولا نرى تغييرا لموقف العربي المعاصر نفسه إذا سمع كلام العرب الجاهلي؛ منثوره ومنظومه، وما من غرابة في ذلك ما

دام القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف هو من أفضل التراكيب التي نطقت بها العرب في القديم. يقول الشاعر الجاهلي امرؤ القيس (ت: 540 م) وهو المرتب في المنزلة الأولى من الطبقة الأولى من شعراء العصر الجاهلي :

(رأيتُ المنايا خبطَ عشواء من تُصب تمتْـــه ومن تُخطئ يعمـر فيهـرم
رأيْتُ سِفاه الشيخ لا حلم بعـــده وأن الفتى بعد السفاهـــة يحلم
وأعلمُ ما في اليوم والأمس قبلـه ولكنني عن علم ما في غد عمي
ومنْ لم يُصانـــع في أمور كثيـرة يُضرّس بأنْياب ويُوطـأ بمنسم
ومنْ يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتّقي الشتم يُشتمي)[14]

وقارئ الأبيات الأخيرة يستفيد من الحكمة التي اكتسبها امرؤ القيس في حياته، فلا بدّ أن يكون قد خبر الحياة وظروفها، ومعاناتها، وتعلم فيها الأفعال والأخلاق التي كانت سائدة في ذلك العصر، كسِفاه الشيخ الذي لا حلم بعده، وحلم الفتى بعد سفاهته، وعلى الرغم من مرور أربعة عشر قرنا من الزمان بل أكثر من ذلك، فإنّ الإنسان العربي لا يكاد يجد صعوبة في فهم الكلمات والتراكيب ولا يشعر بغرابة في الألفاظ .

ويقول الشاعر حافظ إبراهيم (ولد :1871م – ت1932م) على لسان اللغة العربية :

رموْني بعقم في الشبابِ وليتني عقمْت فلم أجزعْ لقول عداتي
أنا البحر في أحشائه الدرُّ كامنٌ فهلْ سألوا الغواصَ عنْ صدفاتي؟

يتحدث حافظ إبراهيم على لسان اللغة العربية، وكأنها لغة غريبة في وطنها الذي نشأت فيه منذ زمن بعيد، ثم يشبهها بالبحر الذي لا نهاية له في شساعته وقوته وعمقه، ولكن الخلل والعيب والنقصان في الذين اتّهموها بالعجز والقصور، ورموها بالعقم والتحجر، ولكن الذي يطلع على قيمتها النفيسة، الغالية، ويعرف منزلتها الرفيعة، العالية إنما هو الغواص الذي يحسن فنّ الغوص والسباحة.

لذلك إذا تحدثنا عن راهن اللغة العربية ففي اعتقادنا أنّ راهنها متعلق بماضيها ولا يمكن بأي حال من الأحوال الفصل بينهما، والشواهد القليلة الأخيرة سند صالح لذلك، وإن التدقيق في اللغة العربية المعاصرة يكشف لنا بعض الألفاظ والكلمات التي فارقت اللغة العربية الأم، ولكن تبقى تلك الأم الفصحى حية مادام وجودها مرتبطا بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة.

من جراء هذا تبقى اللغة العربية الفصحى صالحة لمواجهة التحديات، ولها القدرة على التصدي لحل المشكلات التي استعصت على كثير من اللغات في المعمورة، ولكن مع ذلك لا بد من اجتهاد أهلها للنهوض بها وعدم الاستهانة بها في كثير من المناسبات. ولا مناص من الإرشاد

إلى بعض الجهود التي يبذلها العلماء والمفكرون والباحثون في مجال اللسانيات القديمة والحديثة والذين وضعوا أيديهم على مواطن القصور في استعمالنا للغة العربية، فقد تحملوا مسؤولية الذود عن هذه اللغة التي يرون فيها الصلاح والفلاح، وهم بأبحاثهم تلك يؤكدون على أنّ هذه اللغة هي التي تصلح لنا، وهي القادرة على التعبير عن أحوالنا، وظروفنا ... فلابد من استعادة هيبتها والمحافظة عليها.

في المحافظة على اللغة العربية :

إنّ المحافظة على اللغة العربية سلوك حميد لا يقوم به إلا أهله، فهي لغتنا التي تحمل تراثنا، ومقوماتنا، فلا ننتظر أبدا أن يحافظ عليها أقوام ليسوا عربا، ولا مسلمين، ولا تربطهم بهذه اللغة صلة، بل العكس من ذلك، الذي نشهده اليوم هو الحرب الضروس التي لا تهمد نيرانها على اللغة العربية، فهم يتهمونها بالقصور والتحجر والعجز وفقدان الصلاحية، وعدم القدرة على مواكبة التطور والأحداث المستجدة ... ولهذا فإنّ الحريصين على المحافظة على اللغة العربية في القطر العربي كله وفي غيره، لم يغفلوا عن هذه الاتهامات وراحوا يواجهونها ويتصدون لها بتأنّ وروية وعقلانية، وبالعمل المنظم، والتخطيط المحكم، بألسنتهم في المؤتمرات والندوات والملتقيات، وبكتاباتهم في الكتب والجرائد والمجلات...

ولئن نرى بعض القصور في التعامل مع اللغة العربية عند أهلها وذويها، فهناك كذلك من دلّ عليه وحذّر من عواقبه . فما هي الصيغة التي اتخذها العلماء العرب في المحافظة على اللغة العربية ؟.

لقد تشكّلت الجمعيات الأهلية لحماية ورعاية اللغة العربية، مثل: – جمعية لسان العرب لرعاية اللغة العربية – مما يدل على إحساس قوي وعميق وحقيقي بالخطر الذي يتهدد اللغة العربية، وبأنه حان الوقت لكي تتضافر كل الجهود من أجل تحقيق الهدف المنشود والمتمثل في (أن تكون اللغة العربية لغة التعبير لأنشطة الحياة العلمية والعملية والتعليمية والإعلامية والثقافية والترويحية)[15] (جمعية لسان العرب لرعاية اللغة العربية، دليل المؤتمر السنوي السابع . القاهرة: 30–28 أكتوبر 2000م) كما جاء من ضمن أهداف جمعية حماية اللغة العربية في الشارقة – الإمارات العربية المتحدة – (غرس الاعتزاز باللغة العربية في نفوس أبنائها باعتبارها لغة القرآن الكريم، وحث الهيئات والمؤسسات العامة والخاصة على تعزيز استخدام اللغة العربية وجعلها هي الأساس في التعامل والتخاطب والإعلان)[16].

(الملتقى الأول لحماية اللغة العربية – معا نحمي اللغة العربية – الشارقة 21–23 – 10 –2001م).

ولابد من الإشارة إلى ما عقد من المؤتمرات والندوات والاجتماعات على امتداد الوطن العربي من أجل معالجة (مشكلة تعليم اللغة العربية) بدأت عام 1947م وبلغت في مجموعها أكثر من خمسة وعشرين . .وما تزال تعقد إلى الآن . و لا ريب في أن سبب ذلك إنما هو الانتباه لخطورة التعليم في حياة الأفراد والشعوب، بما فيها الأمّة العربية.

والحديث عن التعليم يقود إلى التركيز على عناصره الأساسية، وهي الأستاذ أو المعلم والطالب أو التلميذ والمادّة التدريسية، وهو موضوع يحتاج إلى جهد خاص ، ومقام آخر، وإنما الذي يجدر التركيز عليه هو كيف نحافظ على اللغة العربية عن طريق التعليم ووسائله ، إذ من بين ما يغفل عنه الكثير هو تساهل كثير من المعلمين إن لم نقل جميعهم في التعامل مع اللغة العربية، لأنّ استعمالهم لها إن وُجد، فلا يكون إلا في الصف، ومنهم من يتحدث إلى التلاميذ بالعاميّة، ولا يخفى علينا ما لهذه المسألة ـ التي تبدو هيّنة ـ من الخطورة على اللغة العربية الفصحى، وقد انتبه الأستاذُ حسن ملا عثمان إلى المسألة نفسها في قوله: (وهناك ظاهرة أخرى ـ في مجال تدريس اللغة العربية ـ يجب العناية بها والاهتمام بها وإعطاؤها ما تستحقه من مراعاة وانتباه، وهي الحفاظ على التحدث باللغة الفصحى مع الطلاب في شرح الدرس، والتعامل معهم في المناقشة والاستجواب، وتنفيذ هذه المسألة يعدّ واجبا على كل مدرس. . .إن تساهل المدرس في التحدث في درسه باللهجة العامية يسهم في تحقيق الخطوة الأولى في إفساد اللغة وإضعاف مكانتها من حيث كونها رابطة أصيلة في توحيد الصف العربي والحفاظ على التراث العربي الذي يعدّ أقدم أساس في هذا التراث)[17].

ولا ننسى الانعكاسات السلبية التي تخلفها العامية في حياة الأمة العربية، لأنّ الأمر لن يبقى مقتصرا على اللغة العربية في حد ذاتها، كلغة كأي اللغات، وإنما سيمس ذلك بطريقة أو بأخرى القرآن الكريم، ولذلك نبّه الأستاذ حسن ملا إلى ذلك فيما يلي :(ومن ناحية ثانية يعدّ نشر اللّهجات العامية وسيلة غير مباشرة لمحاربة الإسلام عن طريق إفساد لغته التي هي لغة الإسلام الرسميّ– لغة القرآن الذي هو دستور الإسلام وقانونه الأساسي – في العقيدة والتشريع والتربية والنظام، لأنّ التشكيك في جانب من جوانب هذا الدستور أو إحداث أي ضعف أو خلل فيه يؤثر تأثيرا كبيرا في كيان رسالة الإسلام ونظامه الخالد) [18].

ووضع محاولة أولى في المحافظة على اللغة العربية بتجنب استعمال غيرها من اللغات بما في ذلك اللهجات، نادى الأستاذ عبد الله الدنان بضرورة الاهتمام بالطفل قبل مباشرته التعلم فيما قبل السنة السادسة من عمره، فمن هنا يبدأ استعمال اللغة العربية، قال: (إمكانية تعليم اللغة العربية الفصحى للأطفال قبل السادسة من العمر وذلك باستغلال القدرة الفطرية للأطفال على تعلم اللغات. . . وإذا بدأت مرحلة التعليم لا بد من زيادة حصص اللغة العربية في المنهج الدراسي، كما يجب أن تكون اللغة العربية لغة التواصل الشفهي طوال اليوم المدرسي. . .)[19]

صار الاهتمام بترقية اللغة العربية مسؤولية عامة في الندوات والخطابات الرسمية والتعليم في كل قطاعاته وفي جميع التخصصات، وتجندت لهذا هيئات ومؤسسات كثيرة، منها «مركز البحوث التقنية لتطوير اللغة العربية ببوزريعة» وقال الأستاذ صالح بلعيد في معرض حديثه عن عبقرية الخليل بن أحمد الفراهيدي منوّها بدور المركز المذكور (يعمل « مركز البحوث التقنية لتطوير اللغة العربية ببوزريعة «على إخراجها للدفع بمضمون اللغة العربية إلى مقامها الذي تستهله ضمن اللغات العالمية الكبرى . وهذا بالعودة إلى أصولها، وشحذ تلك الأصول بما استجد من بحوث علمية متطورة في اللغات الأجنبية ...)[20] .

والدعوة اليوم صارخة بوجوب النظر في اللغة العربية على أنها لغة العصر الحديث، و لا مناصّ منْ التركيز على آلياتها والإمْعان فيها كلغة جديرة بتحمل مضامين حياتنا، كما يجب أن يكون لنا تصور منطقي بأنّ البحث في الآليات الداخلية للغة العربية لهو الضرورة الأولى، لتصبح العربية لغة الحوار والمنطق والرقمنة ومسايرة الزمن، ويصير مضمونها عاكسا لواقعنا، ولو أننا ما زلنا نستعمل في بعض المجالات لغة أدبية عقيمة من العلمية، إلا أنه في إمكاننا البحث بالقوة المطلوبة، والطاقة اللازمة لتجديد آلياتها. ويقترح الأستاذ حلمي خليل ما يلي: (إنّ الأخذ بمبْدإ التّخطيط اللّغوي قد يكون الخطوة الأولى على بداية الطّريق لحل مشكلات حياتنا اللغوية وهي مشكلات جديرة بأن تكون في مقدّمة مشكلاتنا القومية والسياسية والاجتماعية، بل لعلّي لا أكون مسرفا إذا قلت إنها مشكلات خليقة بأن تهزّ كيان الأمة العربية هزّا، سواء اليوم أو غدا)[21] .

إنّ مشكلة اللغة العربية في الوطن العربي من أولى المشكلات والمسائل التي تتطلب حزما وعزما، فهي تتعدى المشكلات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وكل المشكلات باتت هيّنة إذا كانت اللغة العربية هي أمها، إنّها الأساس الذي تنبني عليه الأمم والحضارات وتتوطد به الدعائم و الأركان .

ولكن هل نملك سياسة لغوية محددة المعالم لوقاية اللغة العربية ؟ هل أعددنا مخططا يحمي لغتنا العربية من هذا الزحف الجارف للغات الأجنبية الذي يهاجم اللغة العربية في عقر دارها ؟ خاصة في مجال التعليم إذ ما زالت الجامعات العربية تدرس العلوم المختلفة بغير اللغة العربية. ثم ماذا عن مناهج التعليم في الوطن العربي الذي لا يزال يقوم على التلقين والتحفيظ، من دون أن يعلّم المهارات وتقنيات التعبير والحياة ؟..

إنّ مدح اللغة العربية والثناء عليها، والإعجاب بها، والإشادة بها، وغير ذلك مما له علاقة بالمشاعر والأحاسيس، لا نظن أنّ ذلك سيصلح من شأنها وشأننا، وإنما ينفع ذلك بمعيّة وضع مخطط لغوي عربي سليم، يركّز على تعليم اللغة العربية في مراحل التعليم كلها .

حواشي وإحالات :

القرآن الكريم

1 أبو القاسم سعد الله، مقال: التثاقف السياسي والفكري، مجلة مجمع اللغة العربية، بحوث مؤتمر الدورة الثامنة والستين « القسم الثاني » العدد السادس والتسعون صفر1423هـ – مايو 2002م. ص/ 78.

2 محمد محمد داود، العربية وعلم اللغة الحديث، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة: 2001م، ص/ 23.

3 حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، دت، دط، ص /24 .

4 المرجع السابق، ص/ 24.

5 المرجع السابق، ص/ 25.

6 حلمي خليل، دراسات في اللسانيات التطبيقية، دار المعرفة الجامعية، قناة السويس، دولة مصر العربية، دط، 1420هـ – 2000م. ص/ 12.

7 عبده الراجحي، فقه اللغة العربية في الكتب العربية، دار النهضة العربية، ص/ 130.

8 صالح بلعيد، في النهوض باللغة العربية، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ـ الجزائر: 2008 م، ص/ 16– 17.

9 عبد الرحمان الحاج صالح، مقال: تأثير النظريات العلمية واللغوية المتبادل بين الشرق والغرب : إيجابياته وسلبياته عنصر : مفاهيم لغوية عربية اقتبسها العلماء الغربيون في القرنين السادس عشر والتاسع عشر، مجلة مجمع اللغة العربية، بحوث مؤتمر الدورة الثامنة والستين « القسم الثاني » العدد السادس والتسعون صفر1423هـ ـ مايو 2002م. ص/ 123.

10 صالح بلعيد، الخليل بن أحمد عبقري العرب، وزارة التعليم والبحث العلمي مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية، كراسات المركز – العدد الأول، الرستمية، الجزائر: 2006م، ص/ 35 ـ 36.

11 منقور عبد الجليل، مقال: الخليل بن أحمد الفراهيدي ومعجمه « العيْن »،مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، مجلة لغوية علمية تصدر عن المجمع اللغوي للغة العربية، الأبيار، الجزائر العدد الثالث، السنة الثانية، جمادى الأولى 1427هـ ـ جوان 2006م، ص/ 63.

12 محمد محمد داود، العربية وعلم اللغة الحديث، ص/ 23– 24.

13 السيد سابق، فقه السنة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، 1403هـ– 1983م، بيروت– لبنان، المجلد الثاني، ص/385 .

14 جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ـ بيروت ـ لبنان : 1416هـ – 1996م، المجلد الأول، ص/29 .

15 عبد الله الدنان، مقال: نظرية تعليم اللغة العربية بالفطرة والممارسة تطبيقاتها وانتشارها، مجمع اللغة العربية بدمشق، المؤتمر السنوي السادس، لغة الطفل العربي والواقع المعاصر، دمشق : 24–26 شوال 1428هـ ـ 5–7 تشرين الثاني 2007 م. ص/8 .

16 المقال السابق، الصفحة نفسها .

17 حسن ملا عثمان، طرق تدريس اللغة العربية في المدارس المتوسطة والثانوية، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع العليا، الطبعة الثانية، الرياض، المملكة العربية السعودية 1423هـ– 2002م، ص/ 10 .

18 المرجع السابق، ص/11 .

19 عبد الله الدنان، مقال: نظرية تعليم اللغة العربية بالفطرة والممارسة تطبيقاتها وانتشارها، ص/9 .

20 صالح بلعيد، الخليل بن أحمد عبقري العرب، ص/7 .

21 حلمي خليل، دراسات في اللسانيات التطبيقية، ص/13 .